الحجاج والبذاءة

مقاربة تداوليّة بلاغيّة لتعليقات الجمهور على "اليوتيوب"

الدكتور: عماد عبد اللطيف

جامعة قطر وجامعة القاهرة

تثير لغة الأفراد العاديين المكتوبة في وسائط الاتصال العديد من الأسئلة البحثية في اللسانيات والبلاغة على نحو الخصوص. ويحاول هذا البحث استكشاف بعض الخصائص اللسانية والبلاغية لنوع بعينه من أنواع خطاب الجمهور في وسائط التواصل التفاعلية هو التعليق على الأحداث السياسية المنقولة عبر يوتيوب. تتكوّن مادة البحث من تعليقات الجمهور على بثّ مناظرة بين السيّد عمرو موسى والدكتور عبد المنعم أبو الفتوح في المرحلة الأولى من الانتخابات الرئاسية عام 2012. وهي تشكّل مدوّنة من التعليقات المكتوبة مكوّنة من 4886 تعليقًا على بثّيْنِ مختلفيْنِ للمناظرة على يوتيوب، أحدهما بثٌّ حيٌّ كامل لها، والآخر تسجيل لمقتطفات منها. يرجع اختيار هذه المدوّنة إلى ضخامة حجم التعليقات وتزامنية إنتاج معظمها مع بثّ الحدث، وهو ما يضمن درجة أكبر من العفوية والتلقائية. ويركز البحث على معالجة ظاهرتين هما طبيعة الحجج المستخدمة في التعليقات، وشيوع لغة البذاءة من منظور بلاغي تداولي. ويحاجج بأن التواصل عبر الفضاءات الافتراضية يطرح تحديات عدة على بعض الأفكار المستقرة حول هاتين الظاهرتين.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، استجابات الجمهور، التداولية، البذاءة، البلاغة في الفضاء الافتراضي، يوتيوب.

Argumentation and Indecency/Profanity

A Rhetoric-Pragmatic Approach to Public Comments on "You tube"

Abstract: The written language of ordinary individuals in the virtual space raises many rhetoric and linguistic issues in particular. This research attempts to explore some linguistic and rhetorical features of a particular type of audience speech in interactive media, which is commentary on political events transmitted through YouTube. The research material consists of public comments on broadcasting a debate between Mr. Amr Moussa and Dr. Abdel Moneim Aboul Fotouh in the first phase of the presidential elections in 2012. It is a blog written from 4886 comments on two different broadcasts of the debate on YouTube. One is a full live broadcast, and the other is a recording of

تاريخ تسليم البحث: 14 نوفمبر 2016.

تاريخ قبول البحث: 25 جانفي 2017.

excerpts. The choice of this blog is due to the large volume of comments and the synchronization of most of them with the broadcast of the event, which guarantees a greater degree of spontaneity and automaticity. The research focuses on addressing two phenomena, namely the nature of the arguments used in the comments, and the prevalence of the language of indecency from a deliberative rhetorical perspective. He argues that communication across virtual spaces poses several challenges to some of the stable ideas about these two phenomena.

Keywords: Argumentation, audience interrogatories, pragmatics, indecency/profanity, rhetoric in virtual space, YouTube.

وسائط جديدة .. كتابة جديدة: أتاحت وسائل التواصل الجماهيري الراهنة للفرد العادي التعليق على الخطابات العامة؛ وذلك بفضل انتشار وسائط تفاعلية مثل: الصحف الإلكترونية، التي تتيح تعليقات الجمهور، وبرامج التلفزيون التي تتيح التعليق الآنيَّ على بثّها، إمّا على مواقعها الإلكترونية أو عبر الرسائل الإلكترونية التي تظهر في الأشرطة التفاعلية أسفل الشاشة، ومواقع بثّ المقاطع المرئية والمصوّرة مثل: يوتيوب، والإذاعات الشخصية التي تبثّ مباشرة على الإنترنت، وصفحات الإنترنت الشخصية، سواء أكانت في شكل مدوّنات أم مواقع شخصية، والحسابات الشخصية في مواقع التواصل الاجتماعي على الفيس بوك أو تويتر، وغيرها.

أحدثت هذه الوسائط تغيّرًا جذريًّا في ممارسات الكتابة في العالم العربي. فقد كانت الكتابة قبل انتشار وسائط التواصل الاجتماعي، ووسائل الإعلام التفاعلية، نشاطًا يُمارس، غالبًا، في سياقات محدودة يغلب عليها الطابع العملي؛ مثل: المؤسّسات التعليمية والعمل والتواصل الشخصي عبر تطبيقات الهواتف المحمولة والبريد الإلكتروني. وكان التواصل الكتابي حول الأمور الاجتماعية أو الشخصية محدود الانتشار، ويحدث على فترات متباعدة. وبالمثل، فإنّ تعرُّض الأشخاص العاديين للغة المكتوبة بشكل يوميّ مكثّف، كاد يقتصر على فترة الدراسة، وبعض المهن التي تستلزم الانخراط في نشاط قرائي متصل مثل: العمل في المؤسّسات التعليمية والصحافة، غيرَ أنّ ظهور وسائط التواصل الاجتماعي، ووسائل الإعلام التفاعلية أحدث تغيّرًا جذريًّا في درجة ممارسة الكتابة في العالم العربي ومداها، وبخاصة في الدول العربية التي شهدت ازدهارًا لافتًا في عدد المشاركين في وسائط مثل الفيس بوك وتويتر وإنستجرام. هؤلاء المستخدمون يقومون بأنشطة كتابية عدّة، من أهمّها كتابةُ رسائل، أو التعليق على كتابات الآخرين في وسائل التواصل الاجتماعي. وهي ممارسات كتابية يومية تعالج حزمة كبيرة من المواقف والموضوعات، وتُتداول في سياقات شديدة التبايُن، وتُنجِز وظائف متنوّعة. ويمكن القول إنّ الكتابة أصبحت نشاطًا شبه يومي لأعداد متزايدة من الأفراد العاديين في الفضاء العام في العالم العربي.

وعلى نحوٍ مشابه، ازدهرت ممارسات القراءة في العالم العربي بفضل انتشار وسائط التواصل وتنوّعها. فقد أصبح المزيد من الكتب الإلكترونية والصحف متاحًا على الإنترنت، غير أنّ العامل الأكثر حسمًا في ازدهار القراءة في العالم العربي في السنوات الراهنة، فيما أظنّ، هو انتشار وسائط التواصل الاجتماعي. ويبدو هذا أحد الآثار الجانبية الأكثر أهمية لهذه الوسائط. فعلى الرغم من هيمنة الصور على وسائل التواصل الاجتماعية، فإنّ المساحة المتاحة للغة المكتوبة فيها شديدة الأهمية، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أنّ الكثير من أنشطة المشاركين على الفيس بوك، ترتبط بإعادة نشر أقوال مأثورة أو نصائح أو حِكمٍ أو معلومات عامة أو مقتطفات صحف، وكلّها تشكّل مادة مكتوبة ثريّة. هذا الاتساع في كمّ القراءة ونوعها مؤثّر بخاصة في المجتمعات التي تعاني الفقر، ولديها صعوبات في الحصول على المواد المقروءة التقليدية.

تثير لغة الأفراد العاديين المكتوبة في وسائط الاتصال العديد من الأسئلة البحثية في اللسانيات والبلاغة على نحو الخصوص. ويسعى هذا البحث إلى استكشاف بعض الخصائص اللسانية والبلاغية لنوع بعينه من أنواع خطاب الجمهور في وسائط التواصل التفاعلية هو التعليق على الأحداث السياسية المنقولة عبر يوتيوب. وتتكوّن مادة البحث من تعليقات الجمهور على بثّ مناظرة بين السيّد عمرو موسى والدكتور عبد المنعم أبو الفتوح في المرحلة الأولى من الانتخابات الرئاسية عام 2012. وهي تشكّل مدوّنة corpus من التعليقات المكتوبة مكوّنة من 4886 تعليقًا على بثّينِ مختلفينِ للمناظرة على يوتيوب، أحدهما بثٌّ حيٌّ كامل لها، والآخر تسجيل مقتطفات منها[2]. يرجع اختيار هذه المدوّنة إلى ضخامة حجم التعليقات وتزامنية إنتاج معظمها مع بثّ الحدث، وهو ما يضمن درجة أكبر من العفوية والتلقائية. وسوف أركز في دراستي على معالجة طبيعة الحجج المستخدمة في التعليقات، وشيوع لغة البذاءة من منظور بلاغي تداولي، غيرَ أنّني سأناقش أولاً أثر وسائل التواصل السيبري في ممارسات الكتابة في العالم العربي.

استجابات الجمهور في فضاءات التواصل السيبري: تزايدت المساحة التي يستطيع من خلالها الفرد العادي أن يستجيب كتابةً لرسائل الإعلام الجماهيري، وأن يبثّ في المقابل رسائله الشخصية المكتوبة على نطاق واسع. وتغيّر على نحو جذري مدى استعمال اللغة المكتوبة وحدودها عند الأفراد العاديين. ويرى أحمد بيضون (2016)، بحقّ، أنّ شبكاتِ التواصل أحدثت ثورةً هي تعميم الحقّ في الكلام العمومي، وهيمنة الكتابة على مساحات حياتية لم تكن تشغلها من قبلُ[3].

هذا التغيّر في كتابات الجماهير، هو مظهر من مظاهر التغيّر الجذري الحادث في قدرة الجمهور على الاستجابة الفعّالة للخطابات التي يتلقّاها[4]. فلم يعد الجمهور الغفير مجرّد

مستقبل سلبي لوسائل الإعلام الجبّارة؛ لم يعد مستمع الإذاعة أو قارئ الجريدة أو مشاهد التليفزيون أو متصفّح الإنترنت يتلقّى ما يُلقى إلى سمعه أو يمرّ أمام عينيه فيُعمِل فيه فكره، ويستخرج معناه فحسب، على خلاف هذا، يستطيع الجمهور في الفضاء السيبري نشر رأيه وموقفه ممّا قرأه أو سمعه أو شاهده، في شكل استجابات خطابية مباشرة آنيّة، قد تكون مواجهةً لما تلقّاه فتؤيّده أو تفنّده، تستحسنه أو تستهجنه، تؤكّد مصداقيته أو تنزعها عنه، أو تكون موازية له فتضيف إليه أو تستبدله، أو تكون على هامشه فتقدّم خطابها الخاصّ الذي قد لا يمتّ للخطاب الأصلي بصلة. وهكذا ظهر إلى الوجود ما أُسمّيه"عصر استجابات الجمهور"[5]. فبفضل التكنولوجيا التفاعلية أصبح الجمهور العادي قادرًا لأول مرة في تاريخ البشرية على إنتاج استجابات مكتوبة للرسائل التي يتلقّاها، لها قوة انتشار مقاربة، ودرجة لا تقلّ كثيرًا من قوّتها الرمزية. لقد تعرّضتُ في سياق آخر لأهمّ خصائص استجابات الجمهور في فضاءات التواصل السيبري مقارنة باستجابات الجمهور في التواصل التقليدي مثل الآنيّة، وضعف الخضوع للرقابة وإعادة المعالجة، وقابلية تجهيل المصدر وصعوبة التتبع[6]، غير أنّ التركيز على الاستجابات المكتوبة يضعنا أمام عدد من السمات الأخرى وثيقة الصلة بموضوع هذا البحث؛ هي:

1. نقاء المدوّنة النسبي: كانت كتابات الجمهور التقليدية عادة ما تخضع لأشكال عديدة من الرقابة والانتقاء، يحدث أثناءها استبعاد الاستجابات غير المرغوب فيها، وإعادة تحرير ومعالجة استجابات أخرى؛ على نحو ما كان يحدث في "خطابات إلى رئيس التحرير" على سبيل المثال. أما الاستجابات الراهنة فإنها تتمتع بمساحة أكبر من الحرية والنفاذ. بالطبع ما تزال هناك بعض محددات للاستجابة في بعض الفضاءات تخص كم الكلمات المكتوبة أو طبيعة الكلام المكتوب وأسلوبه. كما توجد استجابات موجَّهة وأخرى منظَّمة بواسطة جماعات أو قوى معينة، بمثل ما توجد أشكال من الاستبعاد المنظم لبعض الاستجابات. مهما يكن من أمر، فإن هذه الممارسات لا تُقارن بالقيود القديمة على استجابات الجمهور. وهذه المحدّدات عادةً ما يتمّ القفز عليها؛ نظرًا لتعدُّد منافذ توزيع استجابات الجمهور، ووجود فضاءات شخصية لا تخضع لأية قيود خارجية تقريبًا. ويعطينا هذا فرصة جيدة لدراسة مسوَّدات اللغة المكتوبة قبل أن تطالها يد الرقابة ومرشّحات الانتقاء.

2. ضخامة حجم الاستجابات وتعدُّد أنواعها: عادةً ما كانت استجابات الجمهور في وسائل الإعلام غير التفاعلية محدودة في حجمها مقارنة بالرسائل الأصلية، كما أنّها عادةً ما كانت تُصاغ في شكل رسائل لغوية فحسب. على خلاف ذلك، فإنّ استجاباتِ الجمهور في الوقت الراهن لا تواجه أيّة قيود في الحجم، وكثيرًا ما يتجاوز حجم بعض الاستجابات حجم الرسالة

الأصلية. وعلى النحو ذاته، تتعدّد في الوقت الراهن أنواع استجابات الجمهور؛ فقد تأخذ شكل رسائل متعدّدة العلامات multi-modal تتضمّن اللغة والصورة واللون والحركة والإشارة، وغيرها.

3. سهولة قابلية الجمع والحصر والقياس: لزمن طويل كانت هناك صعوبات عدة في الحصول على مدوَّنات لدراسة استعمالات الكتابة في الحياة اليومية. وكثيرًا ما كانت هذه الكتابات تُنجز في بيئة بحثية مصطنعة، ممّا يؤثّر في درجة عفويّتها. كما أنّ هذه الكتابات تثير عادةً مسائل تتعلّق بالخصوصية، وكانت هناك قيود على نشر مقتطفات منها؛ لأنها لم تكن مُعدّة في الأصل للتداول العام. إضافة إلى أنّ المدوَّنات الورقية التقليدية تحتاج إلى جهد أكبر في دراستها؛ لأنها غير مرقمنة. على خلاف ذلك، فإنّ الكتاباتِ المتاحة على الفيس بوك وغيره من وسائط التواصل الاجتماعي تتجاوز بعض هذه المشكلات؛ فهي من ناحية عفوية، ومتاحة، وسهلة الاستعمال بفضل رقمنتها. كما أنّها معدَّة في الأصل للنشر في فضاء شبه عام، ويمكن استعمالها لغرض الدراسة إذا كانت تخلو من معلومات شخصية، أو نشرها بعد الحصول على إذنٍ كتابيٍ من صاحبها لو أنّ في نشرها ما يمثّلُ انتهاكًا للخصوصية.

يشكّل هذا الفضاء الجديد لممارسة اللغة مجالاً خصبًا للبحث في العلوم الإنسانية بعامة، واللسانيات والبلاغة بخاصة. فمن خلال دراسة هذه المدوَّنات المكتوبة يمكن استكشاف خصائص استعمالًا للغة المكتوبة عند بشر عاديين، وخصائص التواصل في الفضاء الافتراضي، الذي يقف في منطقة ما بين الفضاء عام والخاص. من ثمّ، فإنّها تُمثّل كَنزًا للمشتغلين في علم اللغة الاجتماعي على وجه الخصوص؛ لأنّها تتيح إعادة استكشاف أسئلة تقليدية مثل: سلوكيات التواصل اللغوي في الفضاء الافتراضي، وإستراتيجيات المحادثة الكتابية، وتغيير الشفرة والازدواج اللغوي ...إلى آخره. إضافة إلى طرح أسئلة جديدة تتعلّق بتأثير الفضاء السيبري في الكتابة، وخصائص الكتابة الافتراضية اللسانية. واختصارًا، فإنّ التعليقات المكتوبة للفاعلين في الفضاء السيبري تُمثّل مادة ثَرِية لدراسة الاستعمال اللغوي الراهن في العالم العربي، وبخاصة في بعديه البلاغي والتداولي.

سوف أركّز في هذا البحث على ظاهرتين بلاغيّتين فحسب؛ هما: أنواع الحجج السائدة في الدفاع عن الآراء والتوجُّهات والمعتقدات؛ ولغة البذاءة في فضاء التواصل الافتراضي. وسوف أحاجج بأنّ السّمتين وثيقتا الصلة؛ لأنّهما ترتبطان بالعلاقات الشخصية بين كتّاب التعليقات، وتتصلان بطرق التعبير المكتوب عن الرأي في الفضاء العام. إضافة إلى ذلك، فإن هاتين السمتين تسهمان في التعرف على ملامح الكتابة في الفضاء السيبري cyberspace، كما أنهما

تتصلان بظاهرة (عدم) التلطيف في الخطاب. وسوف أبدأ بدراسة هيمنة الانتقاد المباشر على طريقة المحاججة، منتقلًا من ذلك إلى دراسة التعبير الأكثر تطرُّفًا عن الانتقاد؛ أعني البذاءة.

الحجاج من وراء لثام: في نقد هيمنة الحجج المسايرة في الثقافة العربية: الحجاج نمطٌ من أنماط النصوص text types يُستخدم لتعزيز قبول معتقدات معينة أو أفكار محددة، وتقييمها بوصفها صحيحة لا خاطئة، إيجابية لا سلبية[7]. والحجاج ممارسة اجتماعية تواصلية؛ لذلك تختلف طرقه وتقنياته وأدواته من مجتمع إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى؛ بل تختلف من شريحة اجتماعية إلى أخرى داخل الثقافة نفسها. فالحجج التي يستخدمها فرد من العامة للبرهنة على تقديره لفكرة ما، قد تختلف عن تلك التي يستخدمها شخص من النخبة للبرهنة على تقديره الفكرة نفسها، على الرغم من أنّ الجميع ينتمون إلى مجتمع وثقافة واحدة[8].

لقد عُنيت دراسات التواصل عبر الثقافات (cross-cultural communication) بتحديد الخصائص المائزة للحجاج في الثقافات المختلفة. وحظيت المقارنة بين الثقافة العربية والغربية بنصيب كبير من الاهتمام الأكاديمي (Drid, 2014). وفي إطار هذه المقارنات دُرِست أبعاد متنوّعة من الحجاج في اللغة العربية المكتوبة خاصَّة، مع التركيز على ظواهر مثل التكرار (Al-Jubouri, 1984)؛ واستخدام الخطاب الشارح meta-discourse في الحجج العربية (El-Seidi, 2000). كما قدّم باسل حاتم (1990، 1991، 1997) [9]أحد أبرز الإسهامات الأكاديمية لرصد الفروق بين الحجاج في الثقافة العربية والثقافات الأخرى، ودعّمتها دراسات باحثين آخرين[10]. يذهب حاتم في أطروحته إلى أنه يوجد نوعان من الحجاج؛ **الأول**: الحجاج المساير Through-argumentation، ويبدأ بعرض وجهة نظر، يتمّ تدعيمها بالحجج والبراهين، ويُختتم بالاستنتاج، وذلك دون أن تكون هناك إشارة ظاهرة إلى وجهة نظر مخالِفة أو معارضة. **والثاني:** هو الحجاج المضاد Counter-argumentation، ويبدأ بتلخيص وجهة النظر المعارضة، يتبعه حجج مضادة، ثم البراهين التي تحدّد أسس المخالفة، وفي النهاية يأتي الاستنتاج[11].

أثبت حاتم (1997) أن النصوص العربية يشيع فيها الحجاج المساير بدرجة أكبر من الحجاج المضاد. وعلى العكس من ذلك يشيع في النصوص المكتوبة بالإنجليزية الحجاج المضاد بدرجة أكبر من الحجاج المساير. وأشار إلى أنّ تفضيل كلّ ثقافة لنوع مغاير من الحجاج متأثر بالأعراف الاجتماعية الموجودة داخل كلّ ثقافة، والطبيعة الاجتماعية - السياسية لها، خاصة ما يتعلّق بموقف كلّ ثقافة من الحقيقة وحرية التعبير.

إن شيوع استخدام الحجاج المساير في النصوص العربية يُبرّر بأنه يُظهر حرصًا أكبر على الحفاظ على التناغم الاجتماعي، وعدم التصادم مع الآراء المخالفة، وإيثار الحفاظ على العلاقات الاجتماعية، حتى لو كان ذلك على حساب تعبير المرء عمّا يعتقد فيه، أو يؤمن به.

وعلى خلاف ذلك، يعكس شيوع استخدام الحجاج المضاد في النصوص الغربية ميلًا إلى الاشتباك مع وجهات النظر المخالفة، والتعبير الواضح عن موقف الفرد منها. كما يكشف عن إيثار إعلان "الحقيقة"، حتى لو كان ذلك على حساب العلاقات الاجتماعية. ويكشف هذا الاختلاف بشكل غير مباشر عن أنّ الثقافة العربية لديها حساسية عالية تجاه مخالفة الآراء ومعارضتها بشكل مباشر أو معلن. وهو أمر ربما كان غير محمود؛ لأنه قد يؤثّر في حركة تطور الحجاج ذاته، الذي لا يمكن أن يتطوّر من غير نقد اللاحق للسابق نقدًا جذريًّا، وإعلان هذا النقد.

وبغض النظر عن الاستدلالات السابقة، التي تربط بين نوع الحجج والتوجهات الاجتماعية، فإنّ مدوّنة الدراسة تقدّم معطيات مغايرة لفرضية باسل. إذ يكشف تحليل تعليقات الجمهور على المناظرة عن هيمنة الانتقاد والتفنيد الصريحين overt criticizing and refutation وهما يمثّلان جوهر الحجاج المضاد على المدوّنة. فما يقرب من 64% من العبارات التي تتضمّن محاججة ضد رأي مخالف، تستخدم انتقادات وتفنيدات صريحة للرأي المخالف. هذا الانتقاد المباشر لا يتوقّف فحسب على انتقاد طرفي المناظرة، بل يتجاوزه إلى انتقاد المعلّقين الآخرين، والإعلاميّنِ اللذين أدارا المناظرة، والإعلانات، وأشخاص وكيانات أخرى. والنسبة الأقلّ من المدوَّنة تستخدم الحجاج المساير، الذي يقدّم فيه المعلق رأيه دون انتقاد مباشر للرأي المعارض أو تفنيد. إضافة إلى ذلك، يشيع في المدوَّنة استخدام أحد أنواع الحجاج الذي يُعدّ أشدّ خشونة من الحجاج المضاد؛ أعني الحجاج بالتشهير Ad Hominem Argument. وهو نوع من الحجاج يجعل شخص الإنسان لا الأدلة الموضوعية أساسًا للحجاج؛ حيث يُستخدم الهجوم الشخصي وسيلةً لتفنيد حجاج ما (Walton, 2006).

تقترح المدوّنة المدروسة أنّ الحجاج المضاد يشيع بدرجة أكبر من الحجاج المساير في بعض السياقات. مع ذلك، فإنّ هذه النتيجة تصدّق فحسب على مدوّنة الدراسة، وهي تتعلّق بنوع محدّد من التواصل هو التواصل الكتابي السيبري بين أشخاص مجهولين حول مواقف سياسية مثيرة للخلاف. ولا أستطيع تعميم هذه النتائج على سياقات تواصلية أخرى، سواء أكانت تخص التواصل الشخصي، أم المؤسسي، أم التواصل في السياق الاجتماعي بين أشخاص تجمعهم علاقات سابقة؛ حيثُ يُحتمل أن تصدق فرضية باسل على نحو أكبر.

تكشف معطيات المدوّنة التي بين أيدينا أن الأفراد يلجؤون إلى الحجاج المضاد بصورة أكبر في سياق التواصل غير المباشر عبر وسيط إلكتروني، الذي يدور حول موضوعات سياسية ساخنة، ويكون المشاركون فيه غرباء بعضهم عن بعض. واتساقًا وفكرة التناسب الطردي بين المجهولية واستخدام الحجاج المضاد، يمكن افتراض أن اللجوء إلى الحجاج المضاد في فضاءات التواصل السيبري سوف يزداد بدرجة أكبر إذا كان الشخص يستخدم هوية مزيفة، أو غير

مُعرّفة كما هو حال أغلب المشاركين في التعليق على المناظرة. ويمكن الادّعاء أنّ الأشخاص الذين يتخفون وراء أسماء وهمية يستخدمون عبارات قاسية في حقّ مخالفيهم، غير أنّني لم أقم برصد إحصائي يدعم هذه الدعوى. ونحتاج إلى مزيد من الدراسات على مدوّنات مشابهة ومغايرة للوصول إلى نتائج قابلة للتعميم بخصوص هذا الموضوع.

يؤدّي شيوع استخدام الحجاج بالتشهير والتفنيد المباشر والانتقاد القاسي إلى إنتاج خطابات تخلو من التلطيف، تهدّد الوجه الإيجابي للآخرين، وتقلّل من مشاعر التضامن، وتزيد من إمكانيات فشل التواصل العقلاني الذي يمكن أن يُنجز في الفضاء السيبري. وتزداد هذه المخاطر بفضل ظاهرة أخرى تُعدّ امتدادًا مباشرًا لاستخدام الحجاج بالتشهير، هي استخدام المفردات البذيئة للتعبير عن موقف أو رأي، أو للدفاع عن فكرة أو معتقد. وهي تشكّل في الوقت الراهن أحد أبرز ملامح الكتابة في وسائل التواصل الاجتماعي في العالم العربي.

تداوليات البذاءة: أسبابها ووظائفها: إحدى الظواهر اللغوية التي تلفت انتباه المتصفّح للتعليقات المكتوبة بالعربية في مواقع التواصل الاجتماعي هي شيوع المفردات البذيئة؛ التي تتضمن مفردات خارجة وسباب وشتائم وإهانات قاسية وتجديف. وعلى الرغم من أنّ مفردات البذاءة تبدو ملمحًا من ملامح اللغة المتداولة في وسائل التواصل المصري العادية، فإنّ درجة حضور هذه اللغة يزداد فيما يبدو في وسائط التواصل الافتراضي التي تتيح تجهيل الهُوية، والتواصل من وراء شاشات بلورية، ويزداد حضورها كثافة في سياق التعبير عن الانتماءات والتفضيلات السياسية.

على الرغم من شيوع ظاهرة البذاءة اللغوية في الاستعمال اليومي للغة في المجتمعات العربية، فإنّ الدراسات حولها تتّسم بالندرة. على خلاف ذلك، هنا كدراسات متعدّدة المنظورات حول البذاءة swearing في اللغة الإنجليزية. ووفقًا لفغرستن(2007) Fägerrstten تركز هذه الدراسات على البعد التاريخي للبذاءة اللغوية وتطوّرها، والأبعاد النحوية والدلالية لها، ومعدّل تكرار استخدامها، ودرجة وقاحتها. كما تعالج دراسات أخرى تدوليات البذاءة ؛ خاصة (عدم) التأدب (im)politeness (Locher, 2010; Ljung, 2011). في حين تُصنّف دراسة (Fägerrstten, 2007) مفردات البذاءة من حيث درجة وقاحتها. ويدرس ليونج Ljung السمات السوسيو- لسانية للبذاءة، محيلا إلى عدد من الأمثلة على مدار فترة زمنية ممتدة. وتقارب دراسة ميركوري (Mercury, 1995) البذاءة من منظور اكتساب اللغة الثانية، إذ تدرس مفردات التابوه في تعليم اللغة الإنجليزية بوصفها لغة ثانية للكبار.

وقد تناولت بعض الدراسات الأبعاد اللسانية للبذاءة في الفضاء الافتراضي. وهناك مقالان وثيقا الصلة بدراستي؛ كتبهما دوستدار (Doostdar, 2004) ودينل (2012) Dynel. يعالج

دوستدار الابتذال vulgarity من منظور أنثروبولوجي في المدوّنات الشخصية Blogs على الإنترنت في دولة إيران. وهو يستخدم vulgarity بمعنى الابتذال اللغوي الذي يحدث بسبب استخدام مفردات عامية (فارسية) ووجود أخطاء كثيرة في النحو والإملاء. يهتم دستور بدراسة الجدل حول مفهوم الابتذال اللغوي في مدونات شخصية من منظور أنثروبولوجي. أمّا مقال دينل، فيدرسُ العَلاقة بين الشتائم و (غياب) التأدُّب (im)politeness من خلال تحليل تعليقات جمهور غير متعيّن على يوتيوب. ترى دينل أنّ الشتائم يُنظر إليها، عمومًا، على أنّها علامة على غياب التأدّب، لكن بعض المفردات التي تندرج ضمن اللعن cursing في بعض السياقات قد تؤدّي وظائف ترتبط بالتأدّب التآزري solidarity politeness مثل: تعزيز العضوية في جماعة، وتأسيس أرضية مشتركة مع المخاطبين، واستدعاء الفكاهة. وفي دراسة لاحقة، يقترح وانج Wang (2013) أن البذاءة في كلام الحياة اليومية يمكن أن تُنجز أربع وظائف تداولية إيجابية هي التعبير عن المشاعر، وتأكيد مضمون الكلام، ومؤازرة الجماعة، والعدوان.

تحتاج لغة البذاءة في المجتمعات العربية إلى اهتمام بحثي يعالج أبعادها المتنوّعة من منظور لساني بلاغي. إذ يمكن دراسة مصادر الكلمات البذيئة مثل: المعجم الديني أو الجنسي أو العلاقات الأسرية ...إلى آخره. كما يمكن أن يُدرس تاريخ هذه الشتائم الاستعمالي، وتصنيفاتها مثل: الشتائم الجنسية والدينية والعرقية. كذلك قد تُدرس بِنى هذه الشتائم الصرفية والتركيبية، والعلاقات النصية والسياقية التي تؤسّسها. ويمكن - أيضًا - دراسة التأثيرات التي يُحدثها استعمالها من منظور اجتماعي أو نفساني. وسوف يعالج بحثي مسألتين؛ هما العوامل المؤثّرة في انتشار لغة البذاءة في التواصل الافتراضي، والوظائف العامة التي يمكن أن تنجزها. وسوف أركز على العوامل العامة والوظائف الكلية، دون خوض في تحليل تفصيلي للعوامل الخاصة المحفزة لإنتاج البذاءة في تعليق بعينه من التعليقات المدروسة، أو الوظائف الخاصّة المتعلّقة بتعليق بعينه.

1. انتقال الأثر: بذاءات التواصل الحيّ في مرآة التواصل الافتراضي: يُمكن أن يُنظر إلى استخدام مفردات البذاءة في وسائل التواصل السيبري على أنه انعكاس لاستخدامها في التواصل الحيّ المباشر. وفي الحقيقة، فإنّ المفردات البذيئة تنتشر في التواصل اليومي في المجتمع المصري على نحوٍ لافت. إذ لم يعُد استخدام هذه اللغة في الفضاءات العامة مثل الشارع أو وسائل المواصلات أو حتّى الأفلام والبرامج الحوارية مثيرًا للاستهجان أو الاندهاش بحسب ما كان عليه الأمر منذ أقلّ من ثلاثة عقود. وبعد أن كان استخدام مفردات البذاءة مرتبطًا بشرائح مهنية وعمرية واجتماعية هامشية ومحدودة، أصبحت شديدة الشيوع على

نطاق كبير، وهذه ظاهرة مستقلّة تحتاج إلى فحص لساني اجتماعي ليس هذا هو سياق تقديمه.

من الجَليّ أنّ هذا العامل مهمٌّ في تفسير شيوع البذاءة في وسائل التواصل الافتراضي؛ فالاستخدام اللغوي في وسائل التواصل الاجتماعي غير منبت الصلة عنه في وسائل التواصل الحي. وبالرغم من ذلك، فإنّ بذاءة الفضاء السيبري لها سمات مغايرة. فهي أولًا بذاءة مكتوبة في مقابل بذاءة الشارع الشفهية. وربّما كانت اللغة العربية المكتوبة تحظى بدرجة أكبر من التقدير في العالم العربي، بفضل هيمنة سياقات استخدام رسمية أو شبه رسمية عليها، على الرغم من أن أقدم الشتائم المكتوبة التي عُثر عليها تنتمي إلى مصر القديمة (Ljung (2011. كذلك فإنّ الكتابة لم تكن قرونًا طويلة متاحةً لكل العرب؛ لارتفاع نسبة الأميّة. وكان ارتباط القدرة على الكتابة بحصول الشخص على قدرٍ من التعليم والثقافة يميّزه عن الآخرين يدفع بلغة الكتابة إلى أن تكون مفارقة للغة المشافهة.

وفي الحقيقة، فإنّ الواقع اللغوي والاجتماعي يدعم ازدهار اللغة الخارجة في فضاء وسائل التواصل الاجتماعي العربي خاصّة بفضل استغلال ثغرات الواقع القائم؛ أعني على وجه التحديد غياب الضبط المؤسّسي، والاستخدام السلبي لحرية مرتدي الأقنعة.

2. حرّية الفاعل المجهول: يمكن إرجاع شيوع لغة البذاءة في الفضاء السيبري إلى غياب التهديد بالعقاب. ويستند هذا التفسير إلى أنّ الاستعمال اللغوي الذي يسمو إلى المثال، فُرض بوساطة العُرف أو الدين أو القانون في فترات ممتدة منذ اخترع الإنسان الفضاء العام. وكان يقع على عاتق المجتمع مساءلة الأفراد الذين ينتهكون الأعراف أو القوانين التي تحدّد ما (يجب أن) يُقال وما (يجب أن) لا يُقال في الفضاء العام، وكانت عقوبة التلفّظ بمفردات تجديفية أو خارجة تصل إلى الموت (Ljung, 2011). وهناك تراثٌ طويل من القوانين المجرّمة للتلفظ بما لا يُرغب في قوله في الفضاء العام. وتنتشر في الوقت الراهن القوانين المنظّمة للكلام في الفضاء العام في كثير من الدول. وعلى خلاف ذلك، فإنّ بعض المجتمعات العربية لا تُوجد بها مثل هذه القوانين، أو لا تطبّقها. ويمكن القول إنّ أحد أسباب انتشار البذاءة هو غياب القوانين المقنّنة لاستعمال اللغة في التواصل الافتراضي، ووجود إمكانيات متنوّعة لإخفاء هُوية المشاركين؛ بوساطة استخدام حسابات مزيّفة على الإيميل أو الفيس بوك أو غيرهما.

إنّ أمْن العقاب قد يكون بالفعل محفّزًا على الإفراط في استخدام لغة بذيئة، خاصة من الفئات العمرية الصغيرة، التي تخضع في بعض المجتمعات لقيود قد تكون صارمة في استخدام هذه اللغة في التواصل اليومي المباشر. وتتزايد جاذبية مفردات البذاءة إذا وضعنا في الاعتبار النزوع الطبيعي عند البشر لانتهاك التابوهات حين يؤمن العقاب. ومفردات البذاءة تُعدّ

في بعض المجتمعات العربية أحد التابوهات الشائعة. ويرتبط هذا التفسير لانتشار البذاءة اللغوية بتفسير آخر يستند إلى فكرة العدوى اللغوية.

3. دوّامة البذاءة: يخضع انتشار بعض السلوكيات الجماعية إلى نظرية العدوى الشائعة في علم نفس الجماهير. وتُعدّ نظرية دوامة الصمت صياغة علمية لنظرية العدوى في سياقات التواصل[12]. وإذا استوحينا نظرية دوامة الصمت لتفسير انتشار الكلام البذيء، فإنّنا يمكن أن ندّعي أنّ مفردات البذاءة تنتشر في الانترنت في شكل دوامات تتوسّع باستمرار، وتجتذب إليها الآخرين، على نحو قد لا يكون في جزء منه إراديًّا.

يزداد تأثير عدوى مفردات البذاءة إذا وضعنا في الاعتبار الطابع الحواري والتفاعلي للتواصل في الفضاء الافتراضي. فمفردات البذاءة لا تكون وصفًا لموضوعٍ أو فكرة فحسب، بل تكون سبًّا وقذفًا لأشخاص مشاركين آخرين، وربّما كان هذا هو العامل الأكثر تأثيرًا في نشر البذاءة. فالبذاءة يُردّ عليها بمثلها أو أشدّ منها، وهكذا تتوالد سلاسل البذاءة.

تتضمّن مدوّنة البحث 23 سلسلة من سلاسل البذاءة، تتكوّن كلُّ سلسلة من ثلاث شتائم إلى خمس، يشارك في إنتاجها من معلِّقَين إلى ثلاثة. عادة ما تبدأ بشتيمة ثم تتوالى الردود. قد يتخلّل هذه السلاسل من الشتائم البذيئة تعليقاتٌ من أطراف آخرين، تهدف إلى تهدئة الحوار، أو نقد اللجوء إلى الشتائم. إنّ ما يثير الاهتمام هو أنّ هذه التعليقات الناقدة للبذاءة، تنقد لغة البذاءة مستخدمة لغة بذيئة. فبعض التعليقات الناقدة تتضمن ألفاظًا خارجة وشتائم. وتؤيّد هذه الأمثلة فكرة عدوى البذاءة التي تطال حتى رافضيها. كما أنّها من ناحية أخرى تشير إلى تغلغل البذاءة في لغة من ينتقدونها أنفسهم، وإلى حالة المفارقة الصارخة بين ما تقوله اللغة وما تفعله.

- heyalaih el nasbetshtemshatayem**bent wes5ama**
- 7dsh plzyeshtemshatayem**bent wes5a**

- عيب ٤ بطلوا شتيمة **يا بقر**
- يا رجاله بلاش **شتيمه وسخه** احنا مش لوحدنا وفيه بنات بتتفرج وفيه ناس من دول تانيه
- ياريت محدش يشتم لاحترام الحوار بعد اذنكم... **ابو الفتوح هين.. موسي العر..**
- علي رأي العر..محدش يشتم **يا ولاد ال..**
- ندعوا الكلب الاحترام في الكومنتات لان معانا بنات **يا ولاد ال.....ههههههههههههه**

ويمكن أن نَعدّ علامة الضحك المتوالية في المثال الأخير عن وعي المعلّق بأنّ تعليقه ينطوي على مفارقة يراها مضحكة.

يستند تفسير دوّامة البذاءة إلى ميل بعض الأفراد نحو التأثر بسلوكيات أشخاص آخرين، يستخدمون لغة بذيئة في التواصل الجماهيري. ومع ذلك، فإنّ التلفّظات البذيئة التي تنتج عن هذا التأثر ليست منظّمة، ولا مقيّدة بخطط سابقة، على نحو ما نجد، على سبيل المثال، في أنواع أخرى من التلفّظات الجماعية البذيئة، التي تُشكّل ظاهرة في الفضاء الافتراضي، والتي تهدف إلى توظيف البذاءة بوصفها أداةً للقمع السياسي على نحو ما سنوضّح لاحقًا.

4. ضعف كفاءة الحجاج العقلاني: يمكن أن نعزو انتشار البذاءة في التواصل السيبري إلى وجود ضعف في كفاءة الحجاج العقلاني. وأميل إلى افتراض أنه توجد علاقة طردية بين شيوع استخدام البذاءة وضعف كفاءة الحجاج العقلاني. إن إحدى الملاحظات التي نراها بشأن استخدام البذاءة في تعليقات الجمهور على بثّ المناظرة هي أنّ التعليقات المتضمِّنة شتائم، لا تتضمّن، في معظمها، حججًا عقلية، أو آراءً مبرهنة، أو معتقدات مبرّرة. وإنما تتضمّن أحكامًا وشتائم، وفي بعض الأحيان شتائم فحسب.

تكشف مدوَّنة التعليقات عن فطنة بعض المعلّقين لهذا الارتباط بين البذاءة وضعف كفاءة الحجاج العقلاني. وربّما كان هذا الارتباط السلبي حافزًا إضافيًّا على لفت انتباه المعلّقين إلى التأثير السلبي الذي تتركه الشتائم على الصورة الجمعية، على نحو ما تكشف التعليقات الآتية:

- **ممكن يكون النقاش أرقى من المسبّات الوسخة ... خلينا نسمع وبموضوعية**[13]
- **بلاش ألفاظ زباله العالم العربى كله بيتابع وفخور بينا وبالحدث التاريخى والانجاز اللى حققناه بلاش تبوظوا الصورة والنبى بلاش شتيمة**
- **يااااجماعة ارتقوا وبلاش شتيمة جزاكم الله خير**
- **أرجوكم أرجوكم التعبير عن الآراء باحترام كل العالم ممكن يشوفكم أرجوكم**
- **لوسمحتوا بلاش ألفاظ خارجة لوسمحتوا خلينا محترمين**

إن القول بوجود علاقة طردية بين شيوع استخدام البذاءة وضعف كفاءة الحجاج العقلاني، يحتاج إلى كثير من الدراسات للبرهنة عليه. وما أقدمه هنا لا يتجاوز الحدس الأوّليّ. ويمكن اختبار هذه المسألة على نحو جيد بوساطة تحليل مدوّنات ضخمة، وقياس العلاقة بين البذاءة وكثافة استخدام الحجج العقلانية وأنواعها.

5. أثر الاستقطاب السياسي: إن ما قدمته من أسباب لتفسير شيوع البذاءة في التواصل السيبري يمكن أن تنطبق على أيّ خطاب للجمهور، غير أنّ هناك أسبابًا خاصة ربما تخصّ البذاءة في تعليقات المشاهدين على البثّ الإلكتروني لمناظرة أبو الفتوح وموسى، من

أبرزها أثرُ الاستقطاب السياسي والشحن العاطفي. فقد عرفت الانتخابات الرئاسية في عام 2012 استقطابًا سياسيًا حادًا بين المؤيّدين والمعارضين. وكان التجاوز في اللغة ملمحًا شائعًا في خطابات الدعاية السياسية المصاحبة لها. وفي الواقع، فإنّ متن المناظرة نفسه لا يخلو من أشكال من العنف اللفظي، فقد انتشرت فيه الاتهامات المتبادلة، وأساليب الاغتيال المعنوي، والحجاج بالتشهير. ثم أخذت تعليقات المشاهدين العنف اللفظي إلى منتهاه. وهناك تعليقات عديدة تنتقد العنف اللفظي في المناظرة، منها على سبيل المثال:

- هي المناظرة دي عشان يشبشبوا لبعض ولا يعرضوا برامجهم !!!! يعني ننتخبهم دلوقت عل أساس مين فيهم هزأ التاني أكتر وطرقعله
- إيه لازمة شخصنة الأمور، سعات بتبقى وصلة ردح مش مناظرة
- تحولت إلى خناقه والله والناس دى واخدانا كوبرى علشان يرموا كلام على بعض

من المثير للاهتمام أن نفحص العَلاقة بين استخدام مفردات البذاءة والاختيارات السياسية، ويمكن أن نطرح سؤالًا هو: هل كان مؤيّدو أحد طرفي المناظرة أكثر استخدامًا للغة البذيئة من مؤيّدي الطرف الآخر؟ إنّ الحافز على طرح هذا السؤال هو وجود افتراض قبلي هو أن يكون مؤيّدو عبد المنعم أبو الفتوح أقلَّ استخدامًا للغة البذيئة من مؤيّدي عمرو موسى، بسبب اتّكاء المرشّح الأول على مرجعية دينية إسلامية. ومن المعروف أنّ السلوكياتِ والأخلاقيات الدينية تشكّل كابحًا قويًا ضد استخدام اللغة البذيئة. إضافة إلى أنّ كثيرًا من تعليقات مؤيّدي الدكتور أبو الفتوح تستند إلى ذخيرة خطابية دينية، كانت جلية في كثير من الحجج التي قدّموها للترويج لانتخابه في تعليقهم على البثّ الإلكتروني للمناظرة. ومع ذلك، فإن الرصد الإحصائي للترابط بين استخدام مفردات البذاءة والاختيار السياسي يُفنّد هذا الافتراض. وفي الحقيقة، فإنّ نسبة استخدام مفردات البذاءة في متن التعليقات التي ندرسها يكشف عن وجود فرق دال لصالح مؤيدي أبو الفتوح على عكس المتوقّع. فمن بين 436 تعليقًا بذيئًا فإنّ 247 تعليقًا تنتمي إلى أشخاص يعلنون بصراحة تأييدهم لأبي الفتوح (بنسبة 57%)، في حين أنّ 162 تعليقًا تخصّ مؤيدي عمرو موسى(بنسبة 37%)، وبقية التعليقات وقدرها 27 تعليقًا لأشخاص لم يحددوا اختيارهم السياسي (بنسبة 6%)، وبعضها لا يخصّ المرشّحَين وإنما يخصّ مقدّمي المناظرة أو إعلاناتها أو أشياء أخرى.

تثير هذه النتائج بعض التساؤلات؛ لأنّها تتعارض والفرضيةَ الأولية التي تفترض وجود علاقة عكسية بين اختيار مرشّح ذي مرجعية إسلامية، ودرجة استخدام مفردات البذاءة في الدفاع عن هذا الاختيار. وتدفعنا إلى تعديل الاقتراح، ونفي افتراض وجود علاقة طردية بين

مرجعية المرشّح الدينية أو المؤيّد ومستوى اللغة المستخدمة في إبراز تأييده. ويمكن تفسير هذه الظاهرة من خلال ما يأتي:

أولاً: التفاوت بين عدد التعليقات المؤيدة لأبي الفتوح في مقابل التعليقات المؤيّدة لعمرو موسى؛ إذ تشكّل التعليقات المؤيّدة بوضوح لأبي الفتوح نسبة 48% في مقابل 37% لموسى، ونسبة 15% تدور حول موضوعات لا علاقة لها بالمناظرة (مثل التعليق على مقدّمي البرنامج أو الإعلانات التلفزيونية أو غيرها)، أو محايدة لا تنحاز لأحد الطرفين. ومن ثمَّ، فإنّ كثرة البذاءات تتناسب طرديًّا وكثرة التعليقات.

ثانيًا: هناك تفسير آخر لكنّني أقدّمه بتحفّظ؛ لأنه لا يمكن بسهولة البرهنة عليه. يتعلق هذا التفسير بالعلاقة بين الأخلاق والسياسة لدى جماعات الإسلام السياسي. ففي حين أنّ خطاب هذه الجماعات يقوم على مهاجمة منافسيها استنادًا إلى افتقادهم إطارًا أخلاقيًّا (مستمدًّا من الدين) فإنّ كثيرًا من ممارساتهم السياسية لا تكشف عن تمايز حقيقي من زاوية أخلاقية الممارسة السياسية. والبذاءة اللغوية هي أحد التجليّات اللغوية لهذه المفارقة.

وظائف البذاءة: تتعدد الوظائف التي تُنجزها البذاءة في استعمالات اللغة في الحياة اليومية، فقد تُنجز عدوانًا لفظيًا، أو تهديدًا للوجه الإيجابي للآخرين وإغاظتهم وإيذائهم. إضافة إلى ذلك، قد تقوم الشتائم بتعزيز انتماء الشخص إلى جماعة ما، أو تأكيد الرأي، أو إنتاج الفكاهة. يُمكن أن يُنسب إلى استخدام البذاءة في الفضاء السيبري تطبيقًا على مدونة هذا البحث وظائف أخرى، أبلورها فيما يأتي:

1. **واقع قبيح .. لغة قبيحة: صورة الواقع في اللغة:** إحدى الحجج المدافعة عن ضرورة استخدام لغة بذيئة في الفضاء العام هي أنّ الواقع الذي تحكيه اللغة أو تصفه أو تحكم عليه أو تقيّمه هو في ذاته واقع بذيء، لا يُمكن وصفه بألفاظ مهذبة. إنّ تفسير مفردات البذاءة بأنها انعكاس للواقع القبيح يستند إلى مسلَّمتَين: الأولى أنّ لغة الإنسان ينبغي أن تقدّم وصفًا دقيقًا لواقع حياته، والثانية أنّ اللغة المهذّبة لا تستطيع تقديم وصف دقيق لواقع قبيح، ومع ذلك، فإنّ المسلَّمة الأولى تُغفل حقيقة أنّ تعامل الإنسان مع اللغة قد خضع عبر التاريخ لأشكال عديدة من التنظيم والضبط والإعلاء، وأنّ الارتقاء باللغة البشرية هو وجهٌ من وجوه التطوّر البشري. أمّا المسلّمة الثانية فتتجاهل ذخيرة هائلة من النصوص والتعبيرات المهذّبة التي تصف على نحو دقيق، أشدّ أوجه الحياة قبحًا. ولعلّ روايات نجيب محفوظ تقدّم نموذجًا متميّزًا لذلك. ومهما يكن من أمر، فإنّ أطروحة أنّ المهمّة الأساس للغة هي وصف الواقع بدقّة تتعارض وقناعةً أخرى محفّزة على استخدام اللغة البذيئة، تدّعي أن المهمّة

الأساس للغة هي تقييم الواقع وتغييره، وأنّ مفردات البذاءة يمكن أن تكون أداة أساسية لتحقيق هذه المهمّة.

2. نحو عالم أفضل: تغيير الواقع بوساطة البذاءة: ثمة وجهة نظر ترى أن استخدام مفردات البذاءة يمكن أن يكون مدفوعًا بالرغبة في إصلاح العالم. ويُنظر إلى اللغة التي تصف الواقع بتهذيب على أنها تمارس أشكالًا من التلطيف اللفظي؛ أي أنها في الحقيقة تُخفي هذا الواقع وراء ستار لُغوي زائف ومزيّف. وتُنتقد هذه التلطيفات اللفظية، لكونها تُمكّن الواقع البذيء من الاستمرار والبقاء، لأن جوهره الرديء يظل مختفيًا تحت طبقات حاجبة من الألفاظ المخاتلة؛ في حين تُمتدَح لغة البذاءة لكونها تتسم بالصراحة والشفافية، فهي لغة كاشفة باترة، تروم إصلاح الواقع بأن تضع أصابعها في عين القبح ذاته دونما خجل أو شفقة.

يمكن أن نجد تأسيسات نظرية للدعوات المحقّرة على البذاءة، استنادًا إلى دورها في تغيير الواقع. فقد دعا هربرت ماركيوز، على سبيل المثال، إلى الاحتفاء بـ"اللغة الوقحة"، "العارية"؛ التي تُسمّي الأشياء بأسمائها[14]. ولا يتردد ماركيوز نفسه في استعمال تعبيرات تنتمي إلى قاموس البغاء لوصف لغة السياسة الدولية الشائعة في عصره، وفي كل العصور، التي تسمّي، مثلاً، الفلاح الفيتنامي الذي يُدافع عن أرضه "إرهابيًّا"؛ في حين تُسمّي الطيار الأمريكي الذي يُلقي النابلم على القرى العزلاء "المحرّر المحبّ للإنسانية". (ماركيوز، 1964).

تبدو هذه الحجّة وجيهة للغاية في دفاعها عن انتشار البذاءة في فضاءات التواصل السيبري والحقيقي أيضًا؛ خاصة حين يتعلّق الأمر بانتقاد السلطة. ويمكن أن تتعزّز قوة البذاءة إذا وضعنا في الاعتبار بُعدًا سيكولوجيًّا مهمًّا يتعلّق بتأثير التلفّظ بمثل هذه المفردات البذيئة في تخفيف التوتّر النفساني، ودعم قدرة الأشخاص العاديين على مقاومة الظروف الصعبة التي يجتازونها (أو لِنَقُل الواقع البذيء)، وأثرها في التخفيف من آلامه، وزيادة قدرتهم على احتماله[15]، غير أنّ الأمر يختلف حين توجّه البذاءة إلى الأشخاص العاديين، في سياقات غير نقدية.

مهما يكن من أمر، فإنّ تأثير البذاءة بوصفها قوة تغيير للواقع، ربما يكون محدودًا للغاية. يرجع هذا إلى أن الشتائم لا تؤثر كثيرًا في تغيير التوجهات والأفكار والآراء. وعلى خلاف ذلك، فقد تكون الحجج العقلانية الهادئة أنجع في معظم الحالات من الصراخ القاذع، وهي بالتأكيد أبقى أثرًا وأعمق تأثيرًا. إضافة إلى ذلك، فإن مفردات البذاءة تدمّر الوجه الإيجابي للطرف الآخر؛ ومن ثمّ تُسهم في توليد ردّ فعل قاسٍ مضاد، حيث يتمسّك كل طرف بأفكاره، ويتخندق كلية وراءها، ولا تصبح هناك إمكانية لتبادل وجهات النظر أو الوصول إلى أرضية مشتركة، بل يُصبح المجال مفتوحًا بقوة أمام العدوان الجسدي الذي يتلو بشكل طبيعي

العدوان اللفظي. ولم يكن من المستغرب أن يكتب أحد المعلقين على فيديو المناظرة هذا التعليق:

- ya gam3a yareetbalashshetema , 2el shetema mesh hat3'ayer 7aga , 5alenna mot7adereen we ne7terem ra2y ba3ed Thanks

(يا جماعة يا ريت بلاش شتيمة، الشتيمة مش هاتغير حاجة، خلينا متحضرين ونحترم رأي بعض).

ويكشف التعليق السابق عن إدراك المعلقين لمحدودية دور البذاءة في تغيير الواقع، ويُلمح إلى ضرورة البحث في علل أخرى لتفسير شيوع لغة البذاءة في الكتابة الافتراضية العربية.

3. ميليشيات البذاءة: في ظلّ تنامي تأثير فضاء التواصل الافتراضي، كانت هناك محاولات من أنظمة حكم، ومؤسّسات، وأشخاص نافذين للهيمنة على هذا الفضاء، غير أنّ الآليّات التقليدية للسيطرة لم تكن كافية في ضوء كثرة البدائل، وصعوبات التحكم التقني. وقد لجأت هذه الأنظمة والمؤسّسات إلى وسيلة أخرى للسيطرة على هذا الفضاء، تتمثّل في إغراق وسائل التواصل الاجتماعي برسائل محدّدة تخدم مصالحها. وقد أُنجزت هذه العملية بوساطة جماعات منظّمة، أُطلق عليها تسمية "الميليشيات الإلكترونية" (عبد اللطيف، 2012أ). هذه التسمية تتقاطع استعاريًّا مع مجال الحرب، غير أنّ الأمر ليس مجازيًّا دائمًا.

تقوم الميليشيات الإلكترونية بأنشطة عدّة، ما يرتبط منها بدراستنا هو التعليق على الإصدارات الإلكترونية للصحف ومقاطع الفيديو والصور وغيرها. فعادة ما تقوم هذه الجماعات بكتابة تعليقات مكثّفة على رسائل متنوّعة، وفقًا لما يخدم مصالح من تعمل لحسابه. وإذا نظرنا إلى السباب والشتائم التي توجه إلى كُتّاب بعينهم، أو موضوعات معيّنة، سوف نجد بينها تشابهات على الرغم من تعدّد أصحابها. هذه التشابهات ترجع بالطبع إلى أسباب متباينة، لكنّنا لا نستبعد أن يكون من بينها أثر الميليشيات الإلكترونية، خاصة ما يتعلّق بالرسائل السياسية الخلافية. وعلى الرغم من قلّة المعلومات المتوافرة حول الموضوع، وأنّ أغلبها مقالات صحفية يمكن أن تكون هي نفسها جزءًا من عمل الميليشيات الإلكترونية فإن ما نودّ تأكيده هو أنّ بعض التلفّظات البذيئة في بعض الرسائل هي نتاج مجموعات منظّمة، هدفها الاغتيال الشخصي لأشخاص محدّدين، وإضعاف قدرتهم على الإقناع من خلال تشويه صورتهم، والإساءة إليهم. في هذا السياق، تتحوّل الشتيمة إلى أداة للقهر السياسي، ووسيلة من وسائل القمع، وأداة من أدوات إنتاج اللامساواة الاجتماعية[16]. وربما كان هذا وراء إلغاء خاصية التعليق في العديد من النشرات الإلكترونية للصحف. وبخاصة التعليقات على مقالات الرأي، التي يتعرّض أصحابها لهجوم الميليشيات الإلكترونية.

ممّا يعزّز تأثير المليشيات الإلكترونية في إنتاج البذاءة في الفضاء السيبري أن بعض سلاسل الشتائم تأتي في سياقات استطرادية، غير وثيقة الصلة بالسياق الأصلي. فعلى سبيل

المثال، هناك سلسلة من الشتائم المتبادلة على أساس طائفي بين طرفين يدّعي أنه سنّي وآخر يدّعي أنه شيعي. كما توجد سلسلة أخرى من الشتائم المتبادلة على أساس قومي بين طرفين يدّعي أحدهما أنه مصري ويدّعي الآخر أنه سوري، وسلسلتين بين طرفين يدّعي أولهما أنه سعودي وثانيهما أنه مصري.

ومهما يكن من أمر، فإنّ هذا السبب من أسباب شيوع لغة البذاءة في الخطاب الافتراضي يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة. خاصة من منظور اللسانيات الاجتماعية التي يمكن أن توفر أدوات لسانية للتحقّق من وجود تشابهات هيكلية بين حزم معيّنة من الرسائل المكتوبة في الفضاء الافتراضي.

خاتمة: الحجاج والبذاءة في الافتراضي: حللتُ في هذا البحث مدوَّنة من كتابات الجمهور على اليوتيوب. وركزتُ على شيوع الحجاج المضاد والمفردات البذيئة. وهما سمتان وثيقتا الصلة؛ لأنهما قد تهدّدان وجه الآخرين الإيجابي. وتكشف التعليقات المدروسة عن شيوع العنف اللفظي، وتهديد وجه الآخرين في الفضاء العمومي، وهو ما يعني أنّ الخطاب العمومي الافتراضي يميل إلى أن يكون أقلّ تلطّفًا في التعبير عن الرأي أو الموقف من خطابات التواصل الشفهي المباشر.

برهنت الدراسة على أنّ الحجاج المضاد قد استخدم على نطاق واسع في مدوّنة الدراسة، وهو ما يتحدّى بعض التصوّرات الشائعة حول تفضيل العرب للحجاج المساير فيما يكتبونه. ويقترح البحث تحليل مدونات متنوعة ضخمة بهدف مراجعة فرضية باسل حاتم المتعلقة بشيوع الحجاج المساير في الثقافة العربية.

فيما يتعلّق بشيوع البذاءة على وجه التحديد، فإنّ الكتابة في الفضاء السيبري تعكس خصائص اللغة الشفاهية في الحياة اليومية أكثر مما تعكس خصائص الكتابة. وتقود هذه النتيجة إلى إمكانية الحديث عن شفهنة الكتابة في الفضاء العمومي العربي بوصفها ملمحًا من ملامح الكتابة العربية في الفضاء الافتراضي. وأقصدُ بشفهنة الكتابة، انتقال سمات التواصل الشفاهي في السياقات الشخصية إلى التواصل الكتابي في الفضاءات الافتراضية. وهو ما يُعدّ تجليًّا لتأثير وسيط تداول الكتابة على الكتابة نفسها. وهي مسألة تحتاج إلى مزيد من الدراسة.

اقترح البحث عددًا من العوامل التي قد تكون مؤثّرة في استعمال البذاءة في وسائل التواصل الاجتماعي، وعددًا من الوظائف التي تقوم بها، غير أنّنا ما نزال بحاجة إلى دراسات أخرى للوصول إلى فهم أفضل لوظائف هذه الظاهرة وعللها.

مراجع البحث وإحالاته:

1 أشكر مجلس البحوث النرويجي NRC على تفضّله بدعم هذا البحث ضمن مشروع بحثي دولي عن اللغة والتغيّر الاجتماعي في العالم العربي، رقم المشروع ES478968 Project Number: 213473.

2http://www.youtube.com/watch?v=Y4r-x92f8D8

http://www.youtube.com/watch?v=vrbkI1fkZFM

3 انظر، بيضون، أحمد. (2015). العربية مفسبكة: عاميّات يُكتب بها وفصحى حوارية. ضمن كتاب "العربية على محك شبكات التواصل"، تحرير أحمد بيضون ومنال خضر، أشكال وألوان، بيروت، ص 15.

4 لعرض متميّز للتغيّرات التي طرأت على مفهوم الجمهور بفضل أشكال التواصل في الفضاء الافتراضي، يمكن الرجوع إلى: Sharon E. Jarvis, John Durham Peters, Joseph B. Walther. "Audience".In Sloane, T. Ed. (2006).Encyclopaedia of Rhetoric. Oxford: Oxford University Press.

5 انظر، عبد اللطيف، عماد. (2009). لماذا يصفّق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفنّ. دار العين، القاهرة.

6 عبد اللطيف، عماد. (2012 أ). بلاغة الحرية: معاركُ الخطاب السياسي في زمن الثورة. التنوير، بيروت-القاهرة-تونس، ص 59-60.

7 انظر، Beaugrande, R and W. Dressler. (1981). Introduction to Text-linguistics. London: Longman.184 ص

8انظر، عبد اللطيف عماد. البلاغة والتواصل عبر الثقافات. هيئة قصور الثقافة: القاهرة، ص115-120.

9Hatim, B. (1990). A Model of argumentation from Arabic rhetoric: Insights for a theory of text types. Bulletin (British Society for Middle Eastern Studies), 17(1), 47–54; Hatim, B. (1991). The pragmatics of argumentation in Arabic: The rise and fall of a text type. Text, 11(2), 189–199; Hatim, B. (1997). Communication across cultures: Translation theory and contrastive text linguistics. Exeter, England: University of Exeter Press.

10انظر على سبيل المثال: Drid, T. (2014).Exploring the Use of Through-Argumentation and Counter-Argumentation in Arabic Speaking EFL Learners' Argumentative Essays.AWEJ Vol. 5 No.4, 2014. Ismail, S. (2010).Arabic and English persuasive writing of Arabs from a contrastive rhetoric perspective (PhD dissertation).Indiana University of Pennsylvania, USA.

11 انظر، باسل (2007)، مرجع سابق، ص 39-41، و: Hatim, B. 1991. The Pragmatics of argumentation in Arabic: The Rise and fall of a text type. Text 11.2, 189-199..، ص 193-196

12Noelle-Neumann, E. (1974). The Spiral of Silence: A theory of public opinion, Journal of Communication. 24 (1) 43-51.

13 بعض التعليقات تحوي أخطاء لغوية متعدّدة، ولم أقم بتصويب إلا ما يتعلّق بكتابة الهمزة فقط.

14 انظر: ماركيوز، هربرت. الإنسان ذو البعد الواحد، تر: جورج طرابيشي،1988، دار الآداب، بيروت، ص122.

15Stephens, R. and Umland, C. (2011).Swearing as a response to pain – effect of daily swearing frequency. J Pain. 12(12): 1274-81.، وقد برهنت هذه الدراسة على أن قدرة الأفراد على مقاومة ظروف قاسية (مثل ترك اليد في الثلج أو الرمال الساخنة) يزداد حين يتفوهون بألفاظ بذيئة بمحض إرادتهم.

16 أشكر د. أحمد بيضون على تقديم ملاحظات شفهية قيمة تتعلّق بهذه الفكرة.